

دهاليز النص و استنطاق المضمّر في رواية هاء و أسفار عشتار "لعزالدين جلاوي" «مقاربة نقدية تأويلية».

د/ أمال ماي

جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة /الجزائر

البريد الإلكتروني: amelmay19@yahoo.com

تاريخ النشر: 2023/12/30	تاريخ القبول: 2023/11/22	تاريخ الإرسال: 2023/11/04
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تحاول هذه الورقة البحثية النبش في النية العميقة و المضمّر في نص " هاء و أسفار عشتار" الملغم بتيمات الشوق، و التوق، و التمرد و الضياع في متاهات الوجود للوصول إلى حقيقة النبوءة التي تتمظهر عبر لغة أسطورية مفارقة للسائد في كتابات "عزالدين جلاوي". مستندة ما أمكنها على آليات القراءة التأويلية لكشف الخفي و تأويل المضمّر؛ من خلال تفسير المقروء الذي يروم تعرية المحتوى السردي المتراقص على وتري الحقيقة و الخيال (الأسطورة الممزقة على جسد النص و المتجلية على بنية العنوان).

الكلمات المفتاحية: القراءة، التأويل، المضمّر، المفهم، التفسير، الأسطورة، الرمز.

الملخص باللغة الأجنبية:

This research paper attempts to dig into the deep and implicit intention in the text of "Haa and the Travels of Ishtar," which is amalgamated with themes of longing, yearning, rebellion, and loss in the mazes of existence to reach the truth of the prophecy that appears through a mythical language that is in contrast to the prevailing one in the writings of "Ezzedine djlawji

Relying as much as possible on the mechanisms of interpretive reading to uncover the hidden and interpret the implicit. Through the interpretation of what is read, which aims to expose the narrative content dancing on the strings of truth and fiction (the myth torn across the body of the text and manifested in the structure of the title).

Keywords: reading, interpretation, implicit, understandable, interpretation, myth, symbol.

1-قراءة التأويلية والرواية/ "هاء وأسفار عشتار":

إنّ النص الأدبي كائن لغوي حي؛ جسده الكتابة وروحه القراءة، هذه الأخيرة التي هي فعل دينامي مفتوح على الثقافة والتاريخ والمجتمع ومختلف المعارف الإنسانية، فالنص والحال هذه نسيج ملغم يتجاوز قدرة الإحاطة به والإلمام بمعناه، سلطته تتعالى وتتمنع عن كل الحدود والآليات المنهجية التي من شأنها أن تدخل في علاقة شرعية وغير شرعية قصد تحقيق المتعة واللذة بتعبير " رولان بارث".

إن العلاقة التي يحققها النص علاقة ثنائية متعددة ؛ تتعلق الأولى بالمؤلف/ النص الذي يدخل في شبكات علائقية مع نصوص سابقة وأخرى لما تكتب بعد، والثانية تتعلق وترتبط بالقارئ الذي هو الآخر يدخل بعدته المنهجية لفك ضفيرة هذه العلائقية التي تظهر حيناً وتتمنع أحيان كثيرة، حيث ما ينتج عن فعل القراءة هو بالتأكيد عملية تأويلية تتحول إلى نص ثان يحمل معنى وينتج دلالة متحولة ومتحركة.

إنّ إنزال رواية" هاء وأسفار عشتار" في ضيافة التأويل، هو أمر لا مناص منه؛ لأنّ الرواية انفتحت على عوالم تاريخية، وواقعية، وتخيلية، تصب في مجملها على فضح سؤال الحرية والعبودية الذي سافر عبر تيمتي التيه والمسح، وهو لا يدعي الإجابة بل « هو بدوره منبع أسئلة جديدة أيضاً»¹، وبذلك إننا نرى أنّ التأويل هو الآلية المنهجية التي تصغي وتسافر من وإلى النص، واستنطاق فحوى دلالته، و مراودته قصد ملامسة جوانبه الخفية، ولهذا تكون مقاربتنا التأويلية فعالية منهجية قرائية داخل النص لا الإلمام بالخط الكرونولوجي لنشاته- أي التأويل-.

إن الرواية محل الدّراسة نص إنساني يخترق الحدود القومية (الجزائرية) إلى الحدود الإنسانية العالمية ؛كونه ينسف الاختلافات الثقافية والسياسية والإيديولوجية التي من شأنها تسيج الحرية وفرض العبودية- وإن كانت عبودية القراءة التي يفرضها النص- وبالتالي فرواية (هاء وأسفار عشتار) تتجاوز القراءة الأحادية إلى الانفتاح على قراءات متعددة ومختلفة، تفتح أفق القراءة وتعدد المعنى.يقول الروائي: «لكنني لم أتوقف على الدراسة، بل ازددت إليها حماساً، كنت أراكم آلاف الكتب من كل التخصصات واللغات والأحجام والفلسفات، وكنت أقرأ كل ما تقع عليه يدي بشراسة كبيرة وعمق شديد، ورغم ذلك لم أكن أستسلم لأقع فريسة لها، كنت أقرأها بحذر شديد، وبرؤية نقدية ثاقبة».

ومن هذا المعطى تصبح القراءة التأويلية تحرر من عبودية البنية السطحية للغة والمعنى وغوص في عمق أحضان النص / البنية العميقة، و عليه نحاول في العنصر التالي أن نقدم قراءة تأويلية لنص أقل ما يقال عليه عجائبي أسطوري منفتح على العالم.

2- الرواية والتحليق عبر أجنحة النص (استنطاق المضمرة):

تسعى رواية "هنا وأسفار عشتار" عبر جناحها تفكيك نسق العبودية الذي يسكن الإنسان على اختلاف ألوانه و ألسنته، بل يسيطر على كل ما هو خاضع لعبودية الآخر؛ من طبيعة، و إنسان، و حيوان، و الرواية في عمقها تحاول إعادة إنتاج جديد لمفهوم الحرية و التحرر من العبودية، فالحرية كما جاءت على لسان جدي "مصباح": «الحرية أن تخرج منك العبودية»¹. هذا المفهوم الذي جعل البطل ينتج آليات جديدة ترفض الهيمنة و الإخضاع، بل ترفض كل نسق ثابت أقره فكر أو فلسفة أو دين، لتكون الحرية هي المتعة و التماهي في حضن الطبيعة، دون رقابة و قيود، لكن هيهات فالطبيعة هي الأخرى خاضعة لعبودية الآلهة.

أ- جناح الأول/أسفار التيه (10-113):

يميط نص "أسفار التيه" اللثام عن صور العبودية و أشكال استنساخ الإنسان الخاضع للمؤسسة الرسمية و التي تتحكم فيه و في وعيه و فكره محاولة إخضاعه و إسكاته و إلجائه ضمن تراتبية تبدأ باهتة داخل رحم الأم ثم تنمو داخل الأسرة و تتطور داخل المجتمع الذي تشده الأعراف و القيم و الأديان، هذه العبودية التي رضعناها صغارا و كبلتنا كبارا و نحن نخبة في صفوف الجامعة تغتصب أفكارنا و تبديدها رفضا منها للتغيير و التحرر من الرتابة و السائد المألوف، يقول الروائي: «ما أتعسنا و نحن نتقلب في السجون، نخرج من سجن الرحم إلى سجن الحزن إلى سجن البيت إلى مئات من السجون، الأسرة المجتمع الدولة القانون الدين و... لنسلم أخيرا إلى سجن القبر، و هل كنا ندري أننا في سجن حين كنا نطفة و بويضة؟ هل يمكن أن نعرف الإنسان بأنه مخلوق سجين؟»².

القارئ للنص و المبحر في فجواته و مناطقه المحرمة نجده يلامس الواقع الإنساني عامة و الجزائري خاصة، الإنسان الجزائري الذي لم يجد سبيلا للخروج من العبودية، بل للتخلص من الإطار الذي سيجه داخل العمى السوسيوقافي الذي أنتجته المؤسسة في مرحلة تاريخية محددة.

إنّ ما طرحه الروائي/ المؤلف في نصه هو محاولة إنتاج جديد لثنائية (الحرية، و العبودية) و قد لخصه في كتاب: "الإنسان الحر" الذي وجد صداه عند فئة قليلة من النخبة و بالتالي الاشتغال على

مشروع جديد يخلخل الأفكار السائدة التي أخرجت الإنسان من طبيعته وفطرته. إنَّ الطرح الذي يقدمه الروائي في نصه و الذي يمزج فيه بين عالمين مختلفين: عالم الحقيقة/ الواقع و الخيال؛ أي بين الواقعي و التخيلي، فبين الواقعي و الأسطوري ارتسمت معالم رحلة تاريخية تقوض الواقع الإنساني/ الجزائري الذي خاض صراعات طويلة ضد العبودية، وهو في رحلته يحاول -في كل مرحلة - التخلص من العبودية، حيث كان منطلقها -الرحلة- مساءلة مفهوم (الحرية و العبودية)، العبودية التي تتزيا بأوصاف و مفاهيم مختلفة؛ و جوهرها تقويض الرؤى و الأنساق التي رسمتها و حددتها فئة من المجتمع، وقد رفضها الكاتب و ثار ضدها دون أن يعلم أن خلخلته للمفاهيم السائدة تربك صناعها و خالقها، لذا كانت معركته شرسة سواء في أسفار التيه أم في أسفار المسخ.

ب-جناح الثاني/أسفار المسخ (116-148):

إنَّ إعادة هيكلة المفاهيم لدى البطل أوقعته في صراع المواقع سواء أكان في صورته البشرية أم الممسوخة- و إن مسخت في شكل راق (ذئب) مقارنة مع صور المسخ الأخرى، فالفكرة التي حارب من أجلها البطل و المشروع الذي صاغه و راهن عليه للتغير بدءا بذاته، و وصولا إلى الآخر، جمع بين الحب الفطري/ الطبيعي و الحب المفروض الذي يتحول عبر صيرورة زمنية إلى عادة مكتسبة، و بالتالي إلى عرف اجتماعي مثبت لرغبة الحرية و التغير، هذا العرف الذي يتحول بفعل التعود إلى أزلي و تاريخي. حمل هذا الجناح في مضانه و بين دفتيه محاولة الارتقاء و السمو بمفهوم الحرية إلى عالم الآلهة، فاستحضر الأسطورة عبر آلهتها و أبطالها و حاول تتبع مصطلحي الحرية و العبودية في عالم الحقيقة، على اعتبار أن الأسطورة إذ « أول خطوة خطاها الإنسان في طريق الإبداع واكتشاف نفسه »³

3- العبودية بين الجليل و الجميل:

يتقاطع في هذه الجزئية مصطلح العبودية بين المؤسسة الخاضعة لقوانين الدولة و بين الطبيعة و الفطرة الخاضعة لقوانين البيئة الطبيعية، و التي يجعلها الروائي بؤرة لتحديد مصطلح الحرية و التحرر، فصوغ مفهوم جديد للحرية انطلاقا من مدخلين مختلفين هو مجازفة صوب المستحيل الممكن تحقيقه، فبين مرجعية واقعية مكبلة بقوانين من وضع البشر و مرجعية مثالية خاضعة -على ما يبدو- لقوانين الطبيعة و الآلهة أنزل الروائي مفهومه للحرية و الذي تكرر عديد المرات في النص و الذي لخصه في مقال "الأحرار قادمون" و فصله كتاب "الإنسان الحر"، « قلبت أوراق الكتاب منتشيا و قد ارتسمت على ملامحي ابتسامة عريضة، لقد جمع عصارة أفكاره عن الحرية، قسمته إلى باين الأول

استعرضت فيه المفاهيم السائدة عن الحرية، وفي الباب الثاني نقض لكل ما سبق على اعتبار لأنها أشكال جديدة من العبودية، وفي الأخير دعوة لحرية الفطرة، حيث حرية الإنسان الأول بعيدا عن الأمراس الناعمة التي خلقها الإنسان بغبائه، وقيد بها نفسه دون أن يدري بل من حيث أن اعتقد أنه حقق حريته»⁴ فالحرية إذن هي خروج العبودية منا، من تصرفاتنا، ومن سلوكيات و عاداتنا، بل حتى ممارساتنا اليومية، وبالتالي الثورة على هذه الأعراف و السنن الاجتماعية المتعارف عليها هو إعادة تشكيل لواقع جديد يدين كل نظرية و رؤيا تلزمننا بها، فنضع حينها لأنفسنا حياة ترقى إلى الأبدية (الجليل)، وبالتالي نكون قد فزنا بالخلود الذي سعى وراءه "جلجامش".

ولأنّ الكاتب/ الروائي يدرك تمام الإدراك أن هذا رهان صعب المنال و البلوغ؛ كونه مقتصرًا على فئة معينة، كجدي "مصباح" الذي كان ينتقل بين عالمين: عالم الواقع و عالم الخيال، إذ انتقل و ارتحل /سافر معه البطل بين مرجعين: الواقعي و التخيلي، حيث نرصده عبر سفر التيه في الواقع و سفر المسخ في الخيال و التخيل.

و كعادته الروائي ينقلنا بين الوعي و اللاوعي في رحلة روحية المدخل فلسفية العمق و الجوهر ليحدد لنا المفهوم الجديد للعبودية، و الوطن، و الوطنية، و المواطنة، و هو في رحلته بين الحقيقي و الخيالي استدعى من الأسطورة الآلهة و أنصاف الآلهة ليقرب للقارئ المفاهيم في صورة آمنة، لكن هيمات فالعبودية كانت منذ الأزل و أخذت أشكالًا متعددة، يقول الروائي: « لكن قلقامش قام و سار فلحقت به، كمريد مخلص يبحث عن الخلاص، و أدرك هو هذا فاقترح عليا اقتراحا عجيبا، و هو يشير إلى مكان بعيد، دعاني أن أحفر بحرا و أجري إليه سواقي من ينابيع بكر، تتدفق من أعماق أعماق الأرض حيث ثلوج القمم الذاهبة من السماء، حتى إذا امتلأ البحر و أشرقت الشمس تبخرت المياه، و تنزلت أمطارا غزيرة غسلت الأرض و الإنسان فأعادته إلى بكارته و نقته مما لحق به من بؤس علومه و فلسفاته وأديانه «⁵، إنها المطر الأسطورية التي تغسل الإنسان من خطايا و تحرره من عبوديته و تعود به إلى فطرته الطبيعية؛ كي تغير مصيره و مصير سيزيف الذي حكمت عليه الآلهة بالشقاء الأبدي.

لقد اعتقد البطل أنّ تقديم مفهوم العبودية من جانبين يعمق الفكرة، و يوضح فكرة الحرية والتحرر التي بدأت مع "سيزيف" الذي خضع لحكم الآلهة و العقاب العبيث الذي أوقع البطل في لعنته. إن حكاية سيزيف هي المفهوم الأول الذي أدركت فيه الذات ثنائيتي (الحرية، و العقاب/ العبودية) لأول مرة ، و هنا إسقاط للواقع المرّ، و للحكم الجائر الذي يجهض كل فكرة و محاولة للثورة على القوانين

والنواميس السلطوية التي تحكم الإنسان و توجهه و تجد من حريته، فمن العبث التفكير في إخراج العبودية من دواخلنا، «ما كنت أفعل إلا ما فعله سيزيف، و قد حكمت عليه الآلهة بالشقاء الأبدي، ورأيت المستقبل كالحا دمويا بغیضا، و رأيت البشر يسعون في أقفاص العبودية، أقفاص شديدة الإحكام متينة الأقفال»⁶. إنه القفص الذي وضعنا فيه الكاتب و الإطار الذي رسمه لنا في رحلة قراءتنا هذه و نحن نرتقي فنتحرر و نخرج في فضاء اللامنتهي.

4- نسق الطبيعة بديلا للعبودية:

إنَّ أخطر أنواع العبودية عي عبودية يرسمها لنا فئة من نفس الجنس و المكان/ الجغرافيا، فنستعبد عنفا» الإنسان يستعبد بالعنف فلنتحرر بالسلم، و خطرت لي فكرة الاجتماع في حديقة منزلنا، أفضل مكان لتجنب أي تصادم، رفضت طفلي المدللة الفكرة بداية الأمر، خوفا علي من جام غضبهم، لكنها رضيت مستسلمة أمام إلحاحي، إيمانا مني أننا دعاة حرية، و علينا أن نمارس حريتنا في كل شيء، و من لا نخضع لإكراه أحد مهما كان، حتى لا نقبل بحكم العبودية»⁸

إنَّ نص الرواية يأتي كإجابة عن سؤال وجودي و قلق معرفي يؤرق الكاتب، و القارئ للنص يلقي أنَّ الكاتب حاول تقديم بديل لمفهوم العبودية، ألا و هو الطبيعة؛ فالطبيعة هي مرجعية ثابتة تحوي كل ما هو داخلي و خارجي، و تحتضن الإنسان في مختلف وضعياته، و إذ ذاك يتماها معها و فيها، و يغدو هو و ذاته واقعا متخيلا يحرره من قيود العبودية في صور مختلفة (عبي مصباح، القط، العنكبوت، النمل، الذئب...) و في نهاية المطاف يحافظ على خصوصيته و حريته في الاختيار. يقول الروائي: «لكن قلقامش قام و سار فلحقت به، كمريد مخلص يبحث عن الخلاص و أدرك هو هذا فاقترح عليّ اقتراحا عجيبا، وهو يشير إلى مكان بعيد، دعاني أن أحفر بحرا و أجري إليه سواقي من ينابيع بkra، تتدفق من أعماق أعماق الأرض حيث ثلوج القمم الزاهية في السماء، حتى إذا امتلأ البحر و أشرقت الشمس تبخرت المياه، و تنزلت أمطارا غزيرة غسلت الأرض و الانسان فأعادته إلى بكارته، و نقته مما لحق به من بؤس علومه و فلسفاته و أديانه»⁹

أبداع الروائي "جلاوي" هنا في خلق علاقة عجائبية بين اللغة و المتخيل، بناها على تيمة التحول بين الواقعي و اللاواقعي، و قد تمكن أن يصيبنا بعدوى حماه و قلقله المستمر و المتصادم مع كائنات مسخت في هيئة لا بشرية و لا حيوانية، و بذلك سجننا في غياهب النص لنعيش معه قلق الواقع، والخوف من الإطار و السجن بمختلف أشكاله (البيت، العائلة، الرحم، الجامعة، المسجد،...).

إن الحرية الجديدة التي رسمها المؤلف، هي الولادة في الطبيعة و العودة إليها، هي التسلل إلى تضاريسها و أحضانها، نتعلم منها الحب و السفر في الأفق الرحب لطبيعة الطبيعة، و بذلك نغير مفهوم الإنسان الذي صاغه الروائي باعتباره كائن مستعبد، إلى الإنسان الذي يسمو و يرتفع إلى عالم الملكوت فيرتقي نحو التوهج و التوقد الذي يشع بإثارة الأسئلة التي تدخلنا في علاقة معرفية و نفسية مع الطبيعة فتعلمنا فن الإصغاء إليها.

خاتمة:

*تحمل رواية " هاء و أسفار عشتار" في طياتها بذور الثورة على العبودية بمختلف مظاهرها وأشكالها التي بات الإنسان يتخبط فيها اليوم؛ ففي ظل فساد الأنظمة أصبح لزاما علينا الثورة عليها بغية إخراج العبودية من دواخلنا (فالحرية أن تخرج منك العبودية)، و لتحقيق هذا خاض البطل في رحلته معركة الحرية ضد العبودية من الزمن الأول إلى زمن كتابة الرواية، و عليه استدعى الأسطورة لتكون شاهدا على الكفاح المستميت لتحقيق الحرية و التحرر من العبودية التي نشبت أنيابها في الزمن، وبذلك أعاد صياغة الأسطورة بطريقة فنية أدبية حفرت الماضي السحيق و عرت الواقع الراهن المعيش، لترسم تحولات أشكال العبودية وطرق الحرية بصورة أدبية شاعرية تبوح بالبعد الجمالي لهاء و أسفار عشتار.

تمثل رواية "هاء و أسفار عشتار" صورة الوعي القلق بخطورة العبودية و دعوة لاستعادة نبتة الخلود التي أخطأها " جلجامش" في رحلته، و قد سرقها الأفعى منه (المؤسسة الحاكمة)، والتي سرقها أفاعي أخرى منه من جنس مسخ ليكون خاضعا للقوانين البشرية الجائرة ، و بالتالي :
*هي دعوة للانفتاح على الطبيعة و الارتقاء في أحضانها.

الهوامش:

¹ بول ريكور: الزمان و السرد (الزمان المروي)، ترسعيد الغانمي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط2006، ص258.

¹ عز الدين جلاوي: هاء و أسفار عشتار، دار المنتهى للنشر و التوزيع، الجزائر، 2022، ص12.

² الرواية، ص97.

³ تيماروت: الآلهة والأبطال في اليونان القديمة، ترهاشم حمادي، الأهالي للنشر والتوزيع، ط، 1994 ن ص 5.

⁴ الرواية، ص44.

⁵ الرواية، ص145.

⁶ الرواية، ص145.

⁸ الرواية، ص 60.

⁹ الرواية، ص 145.